# التفاعلات الرمزية
# وحقيقة الحياة الاجتماعية
# في المجتمع العربي

د. عزي عبد الرحمن
أستاذ بمعهد علوم الإعلام و الإتصال
جامعة الجزائر

# التفاعلات الرمزية وحقيقة الحياة الاجتماعية في المجتمع العربي

د .عزي عبد الرحمن
أستاذ بمعهد علوم الإعلام و الإتصال
جامعة الجزائر

تعتبر التفاعلات الرمزية (symbolic interactionism ) أحد المدارس الاربع [1] التي ميزت الفكر الاجتماعي الغربي المعاصر في هذا القرن. [2] وقد مثلت هذه المدرسة اتجاها اساسيا في دراسة الفعل الاجتماعي الرمزي واحتلت بصفة تدريجية الصدارة في الدراسات الاجتماعية الحديثة في امريكا خاصة وذلك بعد ان تراجعت المدرستان التقليديتان في هذه الدراسات، اي الوظيفية (functionalism) التي وضع معالمها بارسوTalcott Parsons واتباعه من مثل مرتن Robert K. Merton، والمادية النقدية التي تميزت باعمال عدد من المنظرين من ابرزهم ميل C. Wright Mills. وارتكزت دراسات التفاعلات الرمزية على الاتصال والرموز ( أي اللغة) على اعتبار ان المعاني الكامنة في التفاعل الاجتماعي الرمزي تمثل حقيقة الحياة الاجتماعية. وقد نمت هذه الدراسات وتطورت من التحليل المصغر (micro analysis ) الذي يمس جوهر الاتصال في الحياة اليومية الى التحليل الكلي(macro analysis) الذي يتناول النظام الاجتماعي القائم على النظام الرمزي الذي تحمله اللغة من معاني وقيم ومرامي، الخ. وتفرعت هذه المدرسة التي اقترنت باسم ميد George H. Mead إلى عدد من الاتجاهات الفرعية كالمقاربة الدرامية (dramatugical approach) المرتبطة باعمال كوفمان Erving Goffman.

مايلاحظ في الادبيات الاجتماعية العربية [3] ثقل ارتكازها في تناول الفكر الاجتماعي الغربي على

1) اي التفاعلات الرمزية، الظاهرتية الاجتماعية phenomenological sociology، البنيوية (structuralism)، والنقدية التأويلية (hermeneutics). انظر في هذا الشأن:
عزي عبد الرحمن، " مابعد البنيوية والمعالم الثقافية العربية،" المستقبل العربي، العدد 118، 19- 1988، ص 49-37.
عزي عبد الرحمان، "ماهية الظاهرية الإجتماعية و فضاء الحياة العربية"، حوليات جامعة الجزائر، العدد 3، 1989-1988، ص 1989.-173
2) عزي عبد الرحمن، " المدارس الاجتماعية في القرن العشرين وتأملات حول المنظار الخلدوني،" المستقبل العربي، العدد 99، 5- 1987، ص، 154-184.
3) انظر مثلا: مجموعة من الباحثين، نحو علم اجتماع عربي: علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986.

المدرستين الكلاسيكيتين، اي الوظيفية و المادية، وبصفة اساسية اطروحات الثلاثي فيبر، دوركايم، و ماركس والتي وصفها قولدنر في مؤلفه " الازمة القادمة في علم الاجتماع الغربي " بأنها سائرة في طريق الاضمحلال.[4] واستثنت هذه الأدبيات العربية في تقديماتها بالتالي ماأتت به المدارس الاجتماعية الحديثة من إشكالات ومفاهيم في دراسة المعاني والبنيات الرمزية في مختلف ابعادها خاصة وان التفاعلات الرمزية تعيد النظر في الافتراضات النظرية التي حكمت المدارس التقليدية وخاصة الوظيفية والسلوكية (behaviorism) وتقدم نمطا آخر من التصور والبحث الذي يطرح إشكال بناء الحقيقة اجتماعيا بواسطة الرموز (symbols) ومكانة الذات والمجتمع في صيرورة التفاعل الإجتماعي ومناهج البحث في سياق ذلك. هذه الدراسة إذا تدخل في إطار مواكبة التطور الذي شهده ويشهده الفكر الاجتماعي الغربي حديثا بنظرة مشاركة نقدية وادراج موقع الظاهرة الفعلية الرمزية التي تجسد المجتمع العربي في ذلك انطلاقا من المبدأ العام الواعي الذي يفترض ان مثل هذه المعالجة تتطلب فهم المناظير المستمدة من الواقع التاريخي العريض للثقافة في المنطقة العربية ومن ذلك المنظار الخلدوني على سبيل المثال من جهة وكذا من جهة اخرى فهم الفكر الاخر في امكانية توظيفه للمساهمة في النهضة العلمية والفكرية كضرورة في هذا العصر.

اقترنت التفاعلات الرمزية بجهود [5] واعمال الجيل الاول ( ان صح هذا التعبير) من المنظرين نذكر اهمهم ميد (1863-1931)، كولي Charles C. Cooley (1864-1929)، طوماس W. I.Thomas (1863-1947)، جميس William James (1842-1910)، ودوي John Dewey (1869-1952)، وذلك ابتداء من الثلاثينيات من هذا القرن الى الزمن الحاضر. وقد عرفت هذه المدرسة ايضا بمدرسة شيكاغو (the Chicago School ) نسبة الى الجامعة التي كان ينتمي اليها ميد، احد ابرز مؤسسي هذه المدرسة. ونمت هذه المدرسة وظهر جيل اخر من الباحثين نذكر منهم دنكن Hugh Duncan (1909-1975)، بيكر Howard Becker (1928 ) هوكزEverett c. Hughes ، يونغ Kimball Young ،فيرس Ellsworth Faris ، الخ... والذين اتجهوا الى الدراسات الامبريقية واثروا بشكل بارز في الدراسات الاجتماعية في الستينيات والسبعينيات [6] من هذا القرن، وقد سمح هذا التطور ببروز عدة تفرعات في إطار هذه المدرسة منها الاتجاه الذي ظل يحمل تقاليد التفاعلات الرمزية والذي اصبح يتزعمه بلومر Hubert Blumer (1900-) في جامعة بركلي بكاليفورنيا ( أحد الجامعات ذات السمعة العلمية بامريكا)، الاتجاه الامبريقي القائم على نهج الدراسات الكمية والمعروف باسم مدرسة ايوا (the Iowa School) باشراف كون Manford Kuhn (1911-1963)، والاتجاه الدرامي المرتبط بالباحث كوفمان (1922-).

يرتكز اشكال التفاعلات الرمزية بكل تفرعاتها على اعتبار المعاني (meanings) أهم اشكال اجتماعي وان مؤسسة اللغة مصدر المعاني الاجتماعية. هذا الاعتبار يحمل في طياته مرجعين: اولوية المعنى على الاجتماعي، واهمية الخطاب (discourse) للمعنى. اذا فان فلسفة العلم في سياق هذه المدرسة قائمة على فلسفة العالم الاجتماعي كعالم من المعاني المؤولة التي تتأسس في الفعل الاجتماعي (social action ) الرمزي ( اي الذي يتأسس عن طريق الرموز) وتبلور نظام المثل والقيم التي ينبني عليها المجتمع في صيرورة دينامية لاتحتمل التحجير(comportmentalization) والاجرائية (formalism) إشارة الى

4) Alvin W. Gouldner, *The Coming Crisis of Western Sociology*, Basic Books, Inc., New York. 1970

5) يركد لامارت في مؤلفه الذي سنتعرض اليه لاحقا على ان هذه المدرسة ارتكزت في نشأتها على تقليد توصيل المعرفة شفويا اذ ظل باحثو هذه المدرسة اساتذة متكلمين بدل التحول الى الكتابة وذلك يعود في نظر لامارت الى طبيعة المدرسة التي تعتبر الخطاب دينامي متحول.

6) Herbert Blumer, *Symbolic Interactionism : Perspective and Method*, Englewood Cliffs, N.J., 1969

المدارس الكلاسيكية او العلموية ( scientism) التي تميز عدد من المناهج التصنيفية والاحصائية.

## الرمز و الذات و المجتمع

يتبين في تقديمات ميد[7]. مؤسس مدرسة التفاعلات الرمزية، ان موضوع بحث العلوم الاجتماعية هو الفعل الاجتماعي، وهو في ذلك على انسجام مع علم الاجتماع الفيبري الذي يعتبر أن المجتمع هو الفعل الإجتماعي و أن هذا الفعل دال بقدر ما يقرنه الفاعل بمعاني ذاتية (subjective meanings) بشكل واعي ( من لدن هذا الفاعل). ويتمحور الفعل الاجتماعي، في تفكير ميد، في التفاعل الاجتماعي الذي يتوقف على مقدرة افراد المجتمع على استخدام الرموز ( لغوية في معظمها ) في هذا التفاعل والانتقال الى الفعل ( او السلوك بناء على ذلك ). وتحتل اللغة والاتصال من هنا مكانة اساسية في فهم صيرورة تشكل المجتمع سواء في شكله النظامي او في شكله المتحول وفق البنيات التأويلية التي تحكم افراد المجتمع في نفس الوقت الذي يتحكم فيها هؤلاء الافراد الفاعلين في المجتمع. واذا فان الاتصال باستعمال الرموز هو جوهر التفاعل الاجتماعي وبه يمكن تناول ومعالجة الظواهر التي تترتب عن ذلك فيما يتعلق بمفهوم النظام الاجتماعي، تسلسل سلم السلطة، علاقة الفرد بالمجتمع، بنية المعاني في المجتمع، آليات التغيير، الخ. وبمعنى اخر، فان حقائق هذه الظواهر ليست ثابتة بقدر ماتتوقف على المعنى المتغيرالمتغاير الذي يضفيه الافراد على هذه الظواهر في عملية التفاعل الاجتماعي والتي ( اي الظواهر) هي تفاعل اجتماعي يتم فيه التبادل والتفاوض وحتى الصراع بواسطة الرموز، اي اللغة. فالحقيقة في حد ذاتها إذا نتاج يبرز عن التفاعل الاجتماعي.[8].

وقد سعي ميد في طرحه هذا الى ابراز عملية إكتساب اللغة كميزة ينفرد بها العقل البشري، وتتجسد هذه الخاصية في قدرة العقل الانساني على تأويل الرموز والباسها بالمعاني المتجددة باستمرار في كل صيرورة بناء علي ذلك في اطار ماتمت تسميتة بالفعل الاجتماعي. ويميز ميد في هذا السياق بين الاشارة (sign) والرمز (symbol) ، فالاشارة هي مايثير دائما استجابة معينة اي ان رد الفعل يكون انعكاسا شرطيا وفق التعود الذي تلقنه الكائن المعني. (وهو مايمكن ان نجده في التعامل مع الكائنات الاخرى من غير الانسان). ويتمثل الرمز في مقابل ذلك في انه يتطلب التأويل اي ادخال الرمز في شبكة من المعاني التي تضع الرموز في اطار خاص وذلك قبل او قبيل ان يحدث هناك تبادل رمزي في الفعل الاجتماعي بناء على ذلك. ان استعمال الرموز يفترض اذا تواجد نظام اجتماعي ثقافي-اي نسيج من القيم والمعاني والمصالح والاهتمامات والاوصاف المغلفة بشكل معقد في مؤسسة اللغة.[9]

ان عملية التفاعل الاجتماعي الرمزي تطرح بدورها طبيعة العلاقة الكامنة بين الفرد والمجتمع في اطار هذا التفاعل من حيث من يمتلك الاسبقية ( وكذا التأثير) في تحديد المعاني التي تشكل اساس الفعل الاجتماعي. وقد توجه ميد في تحليل ذلك منهجيا الى الفرد على اعتباره الموضوع الذي تتجسد فيه النفس البشرية وكذا العلاقة الرمزية بين هذه والافراد الاخرين في المجتمع على الرغم من ان المنطلق

7) تتمثل اهم اعمال ميد في المؤلفات التالية التي ظهرت بعد وفاته:
*The Philosophy of the Present* (1932), *Mind, Self and Society* (1934), *Philosophy of the Act* (1938)

8) Alan Wells, *Contemporary Sociological Theories*, Goodyear Publishing Company, Inc. CA, 1978, p. 87

9) R.P. Cuzzort & E.W. King, *20th Century Social Thought*, Holt, Rinehart & Winston, New York, 1980, p. 109

السائد في تحليل ميد يقوم على اساس التحليل الاجتماعي.[10]

ويعتبر ميد ان منشأ عملية ادراك النفس (self) والذي ( اي الادراك) يقوم على ادراك مايحمله الاخرون عن هذه النفس يعود الى المراحل الاولى من اكتساب الرموز اللغوية ( اي الطفولة). واذا فان نقطة بداية تطور النفس ومن ثم المجتمع تأتي مع امتلاك الرموز التي تسمح للفرد ان يحدد هويته كحدث يمكن ان ينفصل عن باقي العالم مشارا اليه كشيء مثل باقي الاشياء. وقد ارجع ميد صيرورة تملك الرموز الى عدة مراحل من نمو الطفل. هذه المراحل نردها فيما يلي:

-المرحلة التحضيرية (preparatory stage ) تبدأ هذه المرحلة من اللحظة التي يحتك فيها الطفل مع العالم الخارجي ( اي الذي حوله) الى المرحلة التي يكون فيها الطفل على وشك التعامل مع نفسه من وجهة نظر الاخر. ويتميز فعل (او سلوك) الطفل في هذه المرحلة اساسا بالاقتداء (imitation) اي تقليد الاخر في دور معين. ويظهر الطفل في هذا الفعل القدرة على نسخ الاخر في ادواره الحقيقية، وهي المرحلة التي تمهد الطفل للدخول في عالم الاخر الذي سيشكل فيما بعد اساس الوعي الذاتي او الوعي بالنفس.

-مرحلة اللهو (the play stage): يبدأ الطفل في هذه المرحلة في التعامل مع اقرانه من الاطفال الاخرين، وهو مايسمح للطفل الدخول في منطق الجماعة واتخاذ دور في اطارها. ويعني ذلك ان الطفل بعد ان يكون قد تملك قدرا معتبرا من الرموز اللغوية يبدأ في النظر الى نفسه من منظور عدة اخرين كما انه يظهر القدرة في اداء دوره على الربط بين عدة ادوار في اطار عملية اللهو هذه. ويشبه ميد الاطفال في هذه المرحلة بالفرقة الموسيقية الفلكورية اذ يقوم كل عضو باستخدام آلته بصفة متميزة ( اي الدور) في الوقت الذي يتأثر فعله بافعال عدة اخرين(اي التنسيق فيما بين الافراد) الى ان تظهر هناك نغمة موسيقية شبه متماسكة في نظر المرسل والمتلقي. وهذه الاستعارة بالفرقة الموسيقية تبين مدى التفاعل القائم بين النفس ونفسها وبين هذه النفوس ( او ذوات) الاخرين في علاقة اخذ ورد الى ان يتشكل مايمكن تسميته بالنظام الاجتماعي (social order) على الرغم من ان هذا النظام او التنظيم دائم التطور، اي التغير وفق التطور والتغير الحاصل على المعاني التي يضفيها الافراد الفاعلون على الفعل الاجتماعي الرمزي.

-مرحلة اللعب (the game stage): تنبني هذه المرحلة على مقدرة الطفل على تنمية وتوسيع دائرة تفاعله مع الاخرين بواسطة الرموز التي تكون بدورها قد نمت وتطورت وفق ذلك. وتكون اللعبة المستعارة من القول المأثور " الحياة لعب"، (life is a game)، وهو المعنى الذي نجده في القرآن الكريم في قوله تعالى *"وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون افلا تعقلون،"* [11] وفي قوله تعالى ايضا *"وماهذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الاخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون"* [12]، مركز التنشئة الاجتماعية في هذه المرحلة، ذلك ان الطفل لايكتفي باتخاذ مواقف عدة اخرين واحتلال دور في اطار التفاعل مع هؤلاء الاخرين ولكنه وبالاضافة الى ذلك فانه يتعلم قوانين اللعبة ومن ثم رؤية نفسه في شبكة من الادوار ( التي تبدأ في التعقد) ومن ثم التموقع في نظام من سلم الادوار بناء على ذلك. و لاترتبط هذه القواعد ( اي قواعد اللعبة ) ضرورة بالمنطق العقلاني او ببعض القيم الاخلاقية بقدر ماتنبني على اجماع الجماعة على انها المرجع الذي يحكم نتاج اللعبة او المباراه ( ومن ثم تختلف هذه القواعد في العالم الحقيقي حسب قيم كل مجمتع). ويبدأ الطفل في اوج هذه المرحلة في تنميط مواقف الاخرين من

10)لا يسعى ميد في تركيزه على الفرد إلى سيكلجة (psychologizes)الظاهرة الإجتماعية بقدر ما أملت هذا التوجيه دوافع منهجية و أخرى تتعلق بجوهرية عملية اكتساب اللغة في الصغر.

( 11)سورة الأنعام، الآية 32.

(12) سورة العنكبوت، الآية64.

حيث انها ليست مواقف خاصة و لكنها عامة تمثل موقف الجماعة الفاعل ككل.

-مرحلة الاخر المعمم (the generalized other) : يبدأ الطفل في هذه المرحلة في التفكير لا من حيث منظور الافراد الاخرين الخواص ( اي الفرد الخاص في حد ذاته)، ولكن من حيث النمط المعمم من ردود الاخرين. ومع الزمن، فان توقعات ردود الاخرين هذه تصبح مجردة عن الافراد الخواص الذين اتت منهم. ومن ثم فهي (أي الردود) تنظم في نسق من المعايير الكلية مشارا اليها على حد تعبير ميد بالاخر المعمم (the generalized other). انه ومن خلال شكل الاخر المعمم يصبح تأثير الصيرورة الاجتماعة جليا على سلوك الافراد المشاركين في الفعل الاجتماعي ذلك انه في هذا الشكل تتدخل العملية الاجتماعية او الجماعية كعامل حاسم في تفكير الفرد. [13] وبمعنى آخر، فان الاخر المعمم يرمز الى الجماعة او المجتمع بما يحمله من افكار وتصورات وتقاليد ومواصفات ومرامي الخ.

ويرى ميد العلاقة بين الفرد والمجتمع قائمة على التفاعل المتبادل، فالمجتمع ذو وجود موضوعي في انماط السلوك التي يمكن ملاحظتها في تفاعل الافراد، والفرد يشارك بدوره في بناء المجتمع، فهو عنصر فاعل وليس مجرد نتاج ظروف معينة. ومن هنا فان هذه العلاقة دينامية، أي أنها تتضمن الإستقرار و التغيير في نفس الوقت، و هو ما يفسر لنا النظام الاجتماعي ( اي الوضع القائم) وحركيته ( اي التغيير الاجتماعي). فالفرد الذي كان موضوع ميد يمتلك الاستقلالية في الوقت الذي يظل محكوما في ذلك بالمجتمع ولو أن ميد يميل الى اعتبار الفرد كائن اجتماعي قبل ان يكون شيئا اخر.

ويرى ميد في النفس جانبين تحليلين يجزئان هذه النفس الى الانا (the I) والذات (the me). فالانا هو الجانب العفوي في النفس، وهو الدافع والعنصر الخلاق الدينامي الغير متوقع الذي يحدث رد فعل فريد من نوعه تجاه الوضعيات. ويرتبط الانا بالتجربة الذاتية الخاصة بالفرد وبالكيفية التي استدخل (internalizes) من الخارج الى الداخل بها الفرد مواقف الاخرين الى ذاته. وهذا يفسر لنا كيف ان كل فرد يختلف الى حد ما عن الفرد الاخر وذلك من حيث التجربة التي لايمكن ان تكون نفسها لكل فرد.

وتمثل الذات التمظهر الموضوعي للاخر المعمم، اي التقاسيم المنظمة من المعايير المجتمعية التي ادخلها الفرد الى ذاته. وهي تشتمل على القيم والتعاريف والمعاني التي استوعبها الفرد في التفاعل مع الجماعة واصبحت ( هذه القيم ) تحدد "السلوك السوي في الوضعيات الاجتماعية.[14] فالذات في هذا المعنى هي انعكاسات مواقف الاخرين على ذواتنا، وهذه الانعكاسات تترسخ عندما يأخذ الفرد دور الاخر، اي مرجعا له. ويتضح في تحليل ميد انه ومن خلال اتخاذ دور الاخر يعود الفرد الى ذاته ومن ثم يوجه صيرورته الاتصالية في الفعل الاجتماعي. ويميز ميد في ذلك بين الاخر المعمم الذي يمثل روح الجماعة بمعناها الواسع والاخر او الاخرين ذوي الاعتبار (significant other's) على اعتبار ان هؤلاء بحكم منزلتهم ومكانتهم في نفسية الفرد اكثر تأثيرا في تشكيل ذات الفرد من الاخرين المعممين.[15]

واذا فان هناك علاقة تبادلية بين الانا والذات في النفس البشرية. فالذات تتحسس وتترقب بتمعن

13) Morton Deutsch & Robert M. Krauss, *Theories in Social Psychology*, Basic Books, Inc., New York, 1965, p. 188

14) Harry Cohen, *Connections : Understanding Social Relationships*, The Iowa State University Press, Ames, Iowa, 1981, p. 238

(15) وجد لازرسفيلد في نظريته الخاصة "بالتدفق الإعلامي علي مرحلتين" أن تأثير وسائل الإعلام على الجمهور ليس مباشرا بل يمر عبر قادة الرأي العام يختلف مواقعهم في السلم الهرمي و منهم إلى الرأي العام. و يمكن اعتبار هؤلاء القادة في عملية التأثيرمن الآخرين ذوي الإعتبار.

مايصدر عن الاخرين تجاهها، والانا يسقط تلك التصورات بابداع على الاخرين للاعتبار[16]. ويتبين انه لو لم يكن هناك هذان الوجهان في النفس البشرية لما كان هناك اتصال قائم على الاشتراك في المعاني على مستوى المجتمع. وفي الواقع، فان هذه الخاصية، اي الانتقال من الذات الى الانا والعكس، سمة العقل البشري، فالفرد يجد نفسه دائما في معترك التمرن التخيلي (imaginative rehearsal) تجاه الطريقة التي يمكن التصرف بها في التعامل مع الشيئ في العالم الخارجي. ان الانسان ككائن عقلاني يستعمل الرموز التي تقع خارج ذاته ثم يتصور عدة اختيارات ممكنة في فعله الرمزي ثم يختار بناء على صيرورة انتقائية المسالك التي تؤدي إلى التكيف أو التعاون مع الآخر (أو الآخرين) ويدخل في إطار عملية الإنتقاء هذه ازاحة (او حذف)الفعل الاجتماعي الذي لايؤدي الى تحقيق التفاعل الاجتماعي " الملائم" مع الاخرين. فالحياة من هذا المنطلق تبدو صيرورة تأويلية مستمرة يقوم فيهاالأفراد بتبني مقاصد عدة في اتجاه تحقيق التوازن مع الآخر و تسخير محيطهم بما يخدم الافراد كافراد ومجتمع.

ويتبين في تحليل ميد ان تقسيم النفس الى الانا والذات املته اعتبارات منهجية تمكنها في ان واحد من تفسير التمايز والتماثل في النفس البشرية. فلكل نفس فرديتها الخاصة ونمطها الخاص الذي نمي من خلال معايشة حالة اجتماعية من منظور مختلف نوعا ما عن منظور كل الاخر، لكن هذه النفس في ذاتها تتصل وتشترك في معانيها مع الاخرين في اطار التفاعل الاجتماعي وهي في هذه الحالة تمثل النمط العام من تجاوب الاخرين، اي التفاعل المنمط والمنظم بين الافراد الفاعلين المتنوعين. وفي الواقع، فان طبيعة النفس البشرية وتكوينها مرتبطة بالاخرين دائما، فلكي تكون هناك نفس او وعي ذاتي، لابد وان تكون هناك في نفس الوقت معرفة للنظام الاخلاقي في المجتمع. فالوعي الذاتي هو وعي اجتماعي او جماعتي.[17] واذا يستحيل تصور الذات منبثقة خارج التجربة الاجتماعية.[18] ان الصيرورة التي يأتي بها الفرد الى معرفة نفسه وتعريفها وفهمها ليست مختلفة بل ومماثلة في جوهر معناها للصيرورة التي يمتلك بها القيم تجاه كل الاشياء الاجتماعية الخارجية في المحيط .فطبيعة النفس تتوقف على طبيعة الاخرين الخواص وعلى الجماعة الكلية التي يتعرض لها الفرد في المواقف والمنظورات.

وقد ادخل ميد في منهج البحث مبدأ تجاوز السلوك الظاهر الى السلوك( او التفكير) الخفي ( المعاني الذاتية والدوافع) الذي يمكن النفوذ اليه من خلال الاستبطان (introspection). والاستبطان لاينبغي ان يقرن بالذاتية فحسب، وان كانت هذه ضرورية، ولكن بالنهج الموضوعي الذي يتجاوب مع الطبيعة الدينامية في الفعل الاجتماعي. فتشكل المعاني والمواقف صيرورة خلاقة في المجتمع الذي يتعرض بصفة مستمرة للتغيير، الاجتماعي. يستتبع ذلك انه لايمكن فرض قوالب منظمة على واقع متغير متغاير، وبدلا من ان تحدد المفاهيم العلمية بصفة اعتباطية من طرف الباحث لابد ان تنبني على تعاريف الافراد المتفاعلين في المجتمع.[19]

16) Barry Glassner & Jonathan A. Freedman, *Clinical Sociology*, Longman, New York, 1979, p. 116
17) R.P. Cuzzort, p. 106
18) Ernets Q. Campbell, *Socialization : Culture and Personality*, W.M.C. Company Publishers, Dubuque, Iowa, 1975, p. 11
19) Nicholas S. Thmasheff and George A. Theodorson, *Sociological Theory : Its Nature and Growth*, Random House, New York, 1976, p. 240

## الذات المرآتية و الجماعة الاولية

اهتم كولي،[20] الذي يدخل في تقليد التفاعلات الرمزية بالاصل الاجتماعي للنفس البشرية واعتبر ان النفس تتشكل وتنمو بالتجربة التي هي اجتماعية. واذ نجد ان اساس تكوّن النفس، بالمعني العاطفي او الاحساس بالذات في حد ذاتها، غريزي، اي ان الانسان بطبيعته يبحث عن تحقيق ذاته، فان صيرورة واشكال قولبة هذه المادة الكامنة في الفرد تتم في التفاعل الاجتماعي. وبمعنى اخر، فان النفس تتأسس وتتبلور عبر المؤسس اساسا. ولاحظ كولي انه يمكن اعتبار النفس والمجتمع شيئا واحدا، فمعنى الانا يرتبط بمعنى الـ "هو" والـ "هم" اي الاخرين، والمجتمع يوجد في عقول الافراد الذين يكونونه.[21] فالنفس الفردية اذا اجتماعية تعكس طبيعة المجتمع وقيمه. وقد قدم كولي في هذا السياق مفهوم النفس المرآتية (the looking glass self) اذ اعتبر ان النفس الفردية تمثل صورة انعكاسية للتصورات التي يحملها الاخرون عن ماهيتها. وقد استعمل كولي الذاتية المرآتية كاستعارة عن هذه الصيرورة اذ اشار الي ان الفرد يعايش ثلاث صيرورات في مسار اكتساب الذات الفردية: أ)ان الفرد يتخيل اولا الطريقة التي يظهر بها تجاه الاخرين ( وهي الوضعية المرادفة لعملية النظر في المرآة)،ب) يتخيل هذا الفرد تقييم وحكم الاخرين على هذا المظهر،ج) يكون احساس خاص بذاته من مثل الاعتزاز او الاذلال ( بناء على نظرة هؤلاء الآخرين) و يتصرف بناء على دلك. هذه الصيرورة تأويلية مستمرة و تتوقف ذات الفرد في ذلك على التصور الذي تحمله عن نظرة الاخرين تجاهها اذ لاتوجد هناك ذات فردية دون مشاركة ذوات الاخرين في تشكلها فهي انعكاس للاخرين في الوقت الذي تساهم بدورها في تشكيل ذوات الاخرين.

ويرى كولي ان النفس تبرز وتنمو في اطار الجماعة الاولية (primary group) (مثل العائلة، نادي الاصدقاء، القبيلة، الجيران، الخ). وتقوم الجماعة الاولية على " المعاشرة والتعاون الودي وجها لوجه". وهي ( اي الجماعات) اولية من عدة جوانب ولكنها اساسية في تشكيل الطبيعة الاجتماعية للفرد ومثله. وتكون نتيجة المعاشرة الودية نفسيا بعض الدمج الفرداني في محيط عام مشترك بحيث تصبح نفسية الفرد، بفعل عدة دوافع، الحياة المشتركة وهدف الجماعة. وقد يكون ابسط وسيلة في وصف هذه الشمولية بالقول بانها الـ"نحن"، وهي تتضمن نوع من التعاطف والذاتية المتبادلة اذ يكون الـ"نحن" هو التعبير الطبيعي. [22] واذا فان الجماعة الاولية بمثابة حضانة الطبيعة البشرية واهم محيط في الدخول وممارسة التجربة الاجتماعية اذ من خلالها يقرن الفرد ذاته بالاخرين وياخذ مواقفهم، ومن خلال الاخذ والعطاء يكتسب الاحساس بالقيم الاجتماعية العالمية من مثل الحرية والعدل وروح الخدمة العامة واحترام الضوابط الاجتماعية، الخ. ان الجماعة توفر وحدة التصور ووحدة الذات، هذه الوحدة لاتقوم فقط على " المودة والانسجام" فهي متنوعة متنافسة تقر بالسعي الى اثبات الذات والتعبير عن مختلف الانفعالات، غير ان هذه الانفعالات تمت جتمعتها (socialized) بالتعاطف والبعض الاخر يقع تحت اطار الانضباط الذي تفرضه الروح الجماعية.[23]

ويتماثل منهج كولي مع منهج ميد الى حد كبير اذ يقترح كولي اتباع اسلوب الاستبطان التعاطفي (sympathetic introspection) حيث يقوم الباحث بالمشاركة الذاتية في فهم ذاتية الاخرين في الوقت الذي يكون فيه قادرا على فصل افكاره ومشاعره عن افكار ومشاعر الاخرين الذين هم قيد الدراسة،

(20) أهم أعمالهم:
*Human Nature and the Social Order* (1902) ; *Social Organization* (1909) ; *Social Process* (1918) ; *Sociological Theory and Social Research* (1930)
21) Nicholas, p. 166
22) Donald Light Jr. qnd Suzanne Keller, *Sociology*, Alfred A. Knope, New York, 1982, p. 97
23) Chgarles H. Cooley, *Social Organization*, Schoken Books, New York, 1962, p. 23

وهذا النهج هو المقوم الاساسي في اي تطور ذي معنى في المعرفة الاجتماعية.

## تعريف الوضعية و التفاعل الاجتماعي

واعتبر طوماس [24] ان الوحدة ( او الوحدات) الاساسية في الحقيقة الاجتماعية تتمثل في القيم والمواقف. وفي ذلك، اتجه الى دراسة فعل الفرد ( والافراد) في الوضعية الاجتماعية (social definition). ويطرح طوماس مبدأ تعريف الوضعية (definition of situation)، وهو المفهوم الذي ميز مساهماته، الذي يمثل اي حدث او مناسبة مهيكلة او غير مهيكلة يحدث فيها التبادل الرمزي وتعريف ماتمثله الوضعية بين الافراد الفاعلين في تجسيد مهمة مامهما كانت هذه الاخيرة. وتكمن اهمية هذا المفهوم في ان الافراد الفاعلين يتواجدون في كل الحالات في وضعيات يتم فيها تعريف وتشكيل الحقيقة التي تمثل مرجع الفعل الرمزي في التفاعل الاجتماعي.

ان التعريف ( او التعاريف) التي يتوصل اليها الفرد الفاعل ويجسدها كحقيقة في الوضعية الاجتماعية تحمل انعكاسات حقيقية على مايترتب عن ذلك من فعل اجتماعي، ومن ثم امكن اعتبار الوضعية الاجتماعية جوهر الحقيقة الاجتماعية. وقد بين ذلك طوماس في مقولته : "اذا عرف الافراد الوضعيات كحقيقة، فانها تصبح حقائق في انعكاساتها." [25] ويعني ذلك ضمنيا ان الحقيقة التي يعرفها الافراد في الوضعيات غير مرتبطة ضرورة بالحقيقة في حد ذاتها اذ ان المهم هو مايتبناه الافراد وليس مااذا كان هذا الذي يتبنوه حقيقة ام لا، فالذي ينعكس على فعلهم الاجتماعي مايحملونه من قناعات ذاتية تم بناؤها في الوضعيات الاجتماعية عن طريق الاتصال بالرموز.

ويرى طوماس الوضعية الاجتماعية صيرورة تفاعلية دينامية تقوم على ثلاثة عناصر مترابطة، الظروف الموضوعية التي تتضمن قواعد السلوك الملزمة اجتماعيا في الوضعية، المواقف السابقة التي يحملها الافراد الفاعلون في الوضعية، وتعريف الوضعية من طرف الفرد الفاعل متفاعلا مع الجماعة. وتحمل الظروف الموضوعية ( العنصر الاول) بعض الاستقرار بحكم انها تمثل الضوابط والمؤسسات التي تشكل مواقف الافراد ومن ثم تعاريفهم للوضعيات. ويتضمن جانب التعريف التي يضيفها الفرد على الوضعية ( العنصر الثالث) الجانب الذاتي الابداعي المتمرد ( ان صح هذا التعبير). ويتباين مستوى تأثير الفرد الفاعل في الوضعية الاجتماعية وفق نوعية الشخصية الفردية هذه ما اذا كانت، عامية ( philistine) اي التي تطبعت بالنزعة الامتثالية، او بوهيمية (bohimien) اذ تتميز بالمواقف غير المستقرة و غير المرتبطة ببعضها البعض و المعرضة لتأثيرات عديدة كما أنها تمتلك قدرة معتبرة على التأقلم وان كان هذا التكيف مؤقت دوما، او ابداعية (creative) وهي الشخصية المستقرة المنظمة التي تنمو بحكم التوجه الداخلي نحو التغيير المتضمن في النشاط الانتاجي المخطط. ويتضح ان الشخصية تتشكل بصفة عامة من التجربة الذاتية التي تتم في سياق التعاريف المجتمعية في الوضعيات، غير ان الشخصية الابداعية( النوع الثالث) بامكانها التأثير على الثقافة بوسائل الاكتشاف والاختراع.[26] كما وان تعريف الوضعية،

(24) أهم أعماله:
*Source Book for Social Origins* (1909) ; *The Unadjusted Girl* (1923) ; *The Child in America* (with Swain Thomas) (1928) ; *The Polish Peasant in Europe and America* (with F. Znaniechki) (1927)
25) Nicholas, p. 172
26) Ibid, p. 174

وبالاضافة الى الميزة الشخصية، فانها ترتبط ايضا بطبيعة الرغبات (wishes) التي حصرها طوماس في اربع: الرغبة في تجربة جديدة، الرغبة في الامن، الرغبة في الاعتراف (او الاعتبار)، والرغبة في التفوق ( ويدخل في ذلك الرغبة في السلطة). هذه الرغبات ، وبعض النظر عن اولوياتها ومدى الارتباط بها، فانها لايمكن ان تتحقق الا في الوضعية الاجتماعية، فهي تتوقف على النظرة التي يحملها الفرد على الاخرين ونظرة هؤلاء الاخرين الى الفرد في تعريف الوضعية.

## تعددية الذات و مستويات الحقيقة

يرى جيمس[27] ان الفرد في صيرورة تعريف الذات يقسم العالم الذي حوله الى جزئين: الاول يتعلق بالانا(me) والاخر بما ليس انا(not me). فذات الفرد او نفسه هي مجموع مايعتبره الفرد تابعا له، ليس فقط جسمه وامكاناته الذهنية ولكن ايضا امتداداته من زوجته واولاده واصدقائه وسمعته وعمله واخيرا ممتلكاته. واذا فان مفهوم النفس يرادف الطريقة التي يدرك بها الفرد ذاته وليس الانا الحالي الذي يقوم بمثل هذا الادراك.[28] ويظهر جيمس ان هناك تعددية الانفس او الذوات في نفس الفرد(mutiple selves) ووصفها منهجيا بانها تشمل اربع ذوات: الذات المادية (Material Self) وتحوي جسم الانسان وادواته وحليته، الذات الاجتماعية (Social Self) وتتمثل في الاعتراف الذي يحظى به الفرد لدى الاخرين، الذات الروحية (Spiritual Self) وتتعلق بالوجود الذاتي والداخلي واستعدادات الفرد النفسية من ناحية التأمل، ويكون ذلك نتيجة التخلي عن النظرة الخارجية للذات والتفكير في النفس ميدان الفكر، الذات المحضة (pure Ego ) وتمثل المبدأ المتميز للذات من حيث احساس الفرد بهويته وبالمثلية (sameness) ويتم ادراك ذلك بالفكر الذي يستند الى الاشياء التي هي موضع التفكير.

ويعتبر جيمس ان الحقيقة ليست ماهية كائنة ولكنها قناعة ذاتية. فما هو حقيقي هو ما يقع في علاقتما مع انفسنا. ويعلق واغنر على ذلك بقوله ان تجزأ المشاركة النشطة في مسار حركية الحياة اليومية لاي فرد تؤكد الانطباع على ان هناك عدة مناطق للتجربة. وهذه المناطق تختلف عن بعضها البعض من حيث طبيعة التجربة، المعاني التي يضفيها الافراد على التجربة، وكذا الطريقة التي يتعامل بها الفرد ذهنيا مع هذه الاخيرة. وقد بين جيمس في هذا الاطار ان هناك سلما من الحقائق (orders of reality)، اذ ويحكم ان الحقيقة مرتبطة اكثر بالمساحات الذهنية لمجالات التجربة لا الاشياء في العالم الخارجي، فإن تعددية الحقائق صيرورة لا متناهية. و قد ضمن جيمس مع ذلك عدة عوالم من الحقيقة في التجربة و الإعتقاد: أ) العالم الحسي و الأشياء المادية التي ندركها بتلقائية انية، ب) عالم العلم، جـ) عالم العلاقات المتماسكة كما هي مبنية في المنطق والرياضيات وكل فروع المضاربات الفلسفية، د) عالم معبودات القبيلة او الاوهام والخلفيات الخاصة بالجنس الاثني ( او الجماعات الثقافية الخاصة في المجتمع المعاصر)، هـ) عالم مابعد الطبيعة كالميتافيزيقا والاساطير، و) عالم اراء الفرد المتعددة بتعدد الافراد انفسهم، ون) عالم الجنون والهوى وهو عالم متعدد بدوره. [29] ان كل عالم من هذه العوالم يعرض باسلوبه الخاص

(27) أهم أعماله:
The Principles of Psychology, vol. I and II, 1890
28) Helmut R. Wagner, *Phenomenology of Consciousness and Sociology of the Life-World*, the University of Alberta Press, Canada, 1983, p. 174
29) Ibid, p. 177

والذي يميزه عن كل العوالم الاخرى، ولايعرف الفرد عادة العلاقة بين هذه العوالم. وعندما يتحول الفرد من عالم الى اخر، فانه يتخلى عن عالمه السابق. ان " كل عالم حقيقي في طريقته مادام التوجه اليه قائما. "[30] وهذه الحقيقة تنقضي مع انتهاء الانتباه الموجه اليها. وتتواجد هذه العوالم مع بعضها البعض دون ان تتداخل، غير انه يمكن لاي واحد من هذه العوالم ان يحتل موقعا متميزا لدى الفرد. فالفرد، ايا كان مجال تجربته، يكون لنفسه عادة مسيطرة من الانتباه، وما لايقع في اطار هذا الانتباه او يتعارض معه ينتقل الى عالم اخر او يندثر. فالفرد يعطي للشيء الذي اختاره (اي وجه الانتباه اليه ) درجة عالية من الحقيقة، فالحقيقة تكتسب هذا السمو والعلو بمثل هذا الاختيار والانتباه. وكلما كان كل من المنطق والعاطفة مرتبطان ببعضهما البعض في هذا الاختيار كانت النبرة التي تحملها هذه الحقيقة قوية، ومن اجل ذلك، فان اساس ومصدر كل حقيقة ذاتي اي في انفسنا.

وقد ظهر في مرحلة لاحقة، ابتداء من بعد الحرب العالمية الثانية فمابعد، جيل اخر من منظري التفاعلات الرمزية من مثل بيكر، دنكن، و بلومر. هذا الأخير، كما سبقت الإشارة، طور أبحاثه في هذا المجال بجامعة بركلي: كالفورنيا، بعد ان تمركزت هذه المدرسة لحقبة الزمن بجامعة شكاغو. وتوجه هذا الجيل من الباحثين الى دراسة الظواهر الاجتماعية وبصفة خاصة المشاكل الاجتماعية ومكانة الفعل الرمزي في ذلك، وكذا الى تقنين التفاعلات الرمزية في افتراضات نظرية اكثر ضبطا وشمولية.

وسنتعرض في هذه الدراسة الى كل من الاسماء الثلاثة المذكورة اعلاه على ان نركز بصفة خاصة على افتراضات دنكن المتعلقة ببعض اسس التفاعلات الرمزية قبل التطرق الى التوجه التي اتي به كوفمان والمسمى بالمذهب الدرامي (dramaturgical approach ). في البحث الاجتماعي.

## الجنوح و الصيرورة الرمزية

اعتبر بيكر، [31] في سياق دراسة الفعل الاجتماعي الرمزي، ان مسلك الباحث يتعين دائما ان يذهب ابعد مما توحي به التمظهرات الانية للحقيقة، اي ان نهج الباحث هو جهد يفصح القناع الذي يكون خلف الستار الذي نراه. وفي هذا اتجه بيكر الى دراسة ظاهرة الجنوح (deviance) واظهر ان الجماعات البشرية تنشئ مايسمى بالجنوح بتطبيق مجموعة من القواعد على الافراد الذين يقعون خارج هذه القواعد ثم نتيجة لذلك تتم تسميتهم بالخوارج (outsiders). فالجنوح اذا ليس خاصية كامنة في الفعل " الجنوحي" الذي يرتكبه الفرد ولكنه نتيجة مايقوم به الاخرون في تطبيق الاجراءات الردعية على الجاني. ومن ثم فان الجنوح يعتبر صيرورة رمزية تشمل طرفين، الملتقي اي الفرد الذي تمت تسميته بالجانح ( من طرف الجماعة) وسلطة او حق اثارة هذه التسمية. هذه الاخيرة، اي التسمية، ليست في معزل عن النظام الإجماعي ذلك أن تواجد السلوك المسمى بالجانح يبرر تواجد المؤسسات القائمة على مراقبة ومعالجة هذا السلوك ومن ثم وجود النظام الاجتماعي الرمزي في حد ذاته.

30) Ibid, pp. 177-178

31) أهم أعماله :

*Outsiders* (1963) ; *Making the Grade* (with B. Green and E. Hughes) (1968) ; *Sociological Work : Methods and Substance* (1970) ; *Boys in White : Student Culture in a Medical School* (1970) ; *Campus Power Strugle* (1973)

## الخطابة و البنية الفنية للنظام الاجتماعي

ينطلق دنكن من بعض افتراضات التفاعلات الرمزية ويعتبر ان الاحداث الاجتماعية نتاج اللغة او الرموز، اي ان افراد المجتمع يؤسسون في اطار التفاعل الاجتماعي حقائق معينة بواسطة الرموز ويتصرفون بناء على ذلك. وهذا الامر يجعل هذه الاحداث موضوع تأويل و ليس محل الخوض في أية شروحات على مبدأ السببية كما هو قائم في العلوم المسماة بالموجبة [32] إذ و من الواضح أن أرضية السلوك الإجتماعي ترتكز على الفعل الرمزي المتمثل في الإتصال. و قد دعي دنكن [33] في هذا الإتجاه إلى التحول من دراسة الإنسان في المجتمع إلى دراسة الإتصال إذ أن الطريقة التي يتصل بها الأفراد تحدد الكيفية التي يرتبط بها هؤلاء ببعضهم البعض في الحياة الإجتماعية.[34]

و قد أنكب دنكن على دراسة أهم جانب في الإتصال الإجتماعي، الذي لم يطرح كإشكال في الدراسات الإجتماعية التقليدية و المعاصرة على السواء، و المتمثل في الظاهرة الخطابية (rhetoric)و الفنية (art). فالفعل الإجتماعي يتموقع ضمن الفن، و هو، أي الفن، هو المحرك الأساسي في الفعل الإجتماعي و الأفراد يعايشون هذا الفعل بدافع الفن أساسا. إن الفن لا يعكس شيئا ما من مثل النظام الإجتماعي و الدوافع الإجتماعية، كما كان يشار إلى ذلك في السابق، بل هو النظام الإجتماعي و هو الدافع الإجتماعي. فالفن و النظام الإجتماعي، في تحليل دنكن، شيء واحد، فالنظام الإجتماعي يقوم على الفن (و ليس على العلم الموجب)، و الفن يمثل محتوى النظام الإجتماعي و أساسه. و على حد تعبير دنكن، فإن الفن هو الجهد الإجتماعي بما يحمله هذا التعبير من امتياز. [35] و يرى دنكن أن ما يجعل اللغة تحمل شحنة دافعة إلى الفعل هو الفن و ليس أية ضوابط علموية يمكن أن تحدّد، فالفن يلازم كل ما يحفز أو يدفع إلى سلوك ما، و النظام الإجتماعي يقوم أساسا على هذه المؤسسة الفنية معبّرا عنها بالخطابة.

و الخطابة في هذه الحالة هي اللغة الفعلية [36].

إن العلاقة المتداخلة بين الفن و الرمز في تفسير السلوك الإجتماعي تعتبر إحدى مساهمات دنكن و التي غيّرت إلى حد كبير النظرة التي كان يعالج بها الفعل الإجتماعي. إن النظام و اللانظام (disorder) الإجتماعي يتوقف على نظام الرموز أي الإتصال، فالأفراد الفاعلون رمزيون و الحياة الإجتماعية رمزية أيضا. و تتمثل إحدى خصائص الرموز في القدرة على التوليد الممتد (extensive elaboration) و يعني ذلك أن الرموز تولد شروح وتفسيرات تصبح بدورها محل شروح و تفسيرات اخرى في سلسلة متواصلة لامتناهية، فلو طرحنا تساؤل "لماذا" عن اية ظاهرة رمزية فان الرد يولد بدوره نفس التساؤل مرة اخرى وهكذا. وهذا التوليد ليس من خاصية العالم الحقيقي ولكن من سمات الرموز او العالم الرمزي. وبمعنى اخر، فان العالم الرمزي يصبح مركبا معقدا يتعالى على الفعل الاني في حد ذاته. ان الرموز تؤدي الى صيرورة التوليد، والتوليد بدوره يؤدي الى التأمثل (idealization) اي بناء اطار من المثل والقيم،

(32) يرى دنكن أن العلم في حد ذاته يخضع لما تفرضه مؤسسة الخطابة و ليس العكس و ما تفرضه هذه المؤسسة غير منطقي مهما كانت المعايير العلمية التي يمكن استخدامها.

(33) أهم أعماله:
*Language and Literature in Society* (1953) ; *Communication qnd the Social Order* (1962) ; *The Rise of Chicago as a Literary Center* (1964) ; *Symbols in Society* (1968) ; *Symbols and Social Theory* (1969)
34) R.P. Cuzzort, p. 338
35) Ibid.

(36) يشير دنكن إلى أننا ننظر إلى الخطابة على أنها لغة ملهبة تؤدي إلى الإحساس بالكراهية و هي تستعمل لتحميس الأفراد الذين لا يستطيعون التفكير لأنفسهم، إلا أن ما يقابل الإحساس المذكور من طيبة و حبّ يستند بدوره، و في نظر دنكن إلى الخطابة.

والتأمثل يؤدي إلى تصوير غايات واهداف لايمكن الا ان تبقى غايات واهداف ( اي بعيدة المنال في معظم الاحيان). وهذا التأمثل يحدث اوضاعا تعزز الاحساس بعدم القدرة على تحقيق هذه المثل وذلك ينعكس بطريقة او أخرى على النظام أو اللانظام الاجتماعي. ان التأمثل له حياته الخاصة اذ انه لاينقرض بمجرد انه حدد مجموعة من المبادئ المتعالية التي تكون او تبدو مستحيلة التحقيق، بل ان هذا التأمثل يتحول الى مصدر تأمثل اخر في صيرورة الحفاظ على نظام التأمثل. ان الطابع الثابت اللامتغير للتأمثل قد يؤدي الى تحفيز اللاواقعية كطريقة في الحياة.

ويرى دنكن ان المبادئ المتعالية (transcendent principles) الناتجة عن التأمثل اساسية في الحفاظ على دعائم النظام الاجتماعي. واذا حدث وان اصبحت هذه المبادئ محل تساؤل او غير فعالة، فان النظام الاجتماعي يهتز وفق ذلك. ان عدم القدرة على الاتصال من حيث بعض المبادئ المتعالية هو الذي يؤدي الى احداث التشقق في النظام، وليس مرد ذلك، اي التشقق، وكما كان يشار الى ذلك في السابق، التفاوت في المنزلة الاجتماعية بين من هو اعلى ومن هو اسفل. وبمعنى اخر، فان اضطراب النظام يعني انقطاع او تمزق الاتصال، ويحدث هذا الوضع عندما يقع هناك ارتباك او انهيار في المبادئ التي توفر الاحساس بالانتماء والارتباط بالجماعة.

ان تواجد هذه المبادئ المتعالية ليس كافيا لبقاء النظام الاجتماعي واستمراريته اذ لابد ان تستند هذه الاخيرة علي المؤسسة الخطابية التي تعطي لها دفعا وحافزا تجعلها عالقة في وعي واذهان افراد المجتمع بمختلف اصنافهم المتباينة. وفي الواقع، وعلى تعبير دنكن، فان المؤسسات مهما كانت طبيعتها تعرض الفرد باستمرار الى سيل عارم من الخطابة.وعلى هذا الاساس، فان اعظم مؤسسات المجتمع هي القوي الخطابية العملاقة. [37] ويمكن في هذا السياق اعتبار النظام الاجتماعي انه دائما في وضع اللانظام، وكل يوم يقابل " هذا الخطر" بالدعوة الخطابية المستمرة الى النظام وبقبول هذه المبادئ المتعالية. فالدراما والسياسة وجهان لعملة واحدة.

ويرى دنكن ان هناك وبصفة متزامنة دراما داخلية في علاقة الفرد مع ذاته والاخرين بمحاذاة الدراما الخارجية علي مستوى النظام الاجتماعي. فـ" نحن" يقول دنكن، "خطابيين مع انفسنا كما نحن كذلك مع الاخرين. " [38] ان الافراد يمارسون باستمرار فعل اقناع انفسهم بمغزى سلوكهم تماما كما يسعون الى اقناع الاخرين بذلك. ويواجه الفرد بدوره احتمالية التفكك فيما يستند اليه من مبادئ متعالية، وقد يصل به الامر الى التساؤل عن هذه الاشياء فيصبح السلوك حينئذ شبه مستحيل بناء على ذلك، و ذلك من النوع "هل اكون او لااكون "، و" هل افعل أو لا أفعل"، إلخ. إن حل هذا الإشكال عادة ما يرتكن إلى الدراما فيصبح الفرد دراميا مع نفسه ومن ثم فان المؤسسة الدرامية الفنية هذه تساعد على ايجاد الوهم باننا نمتلك معرفة معتبرة نسبيا عن المعني الذي تحمله الاشياء في الوقت الذي لايستطيع فيه الفرد في الواقع التأكد من معنى اي شيء.

37) R.P. Cuzzort, p. 345
38) Ibid., p. 346

## مصدر المعنى و المفاهيم التحسسية

ويعتبر بلومر، [39] الذي يعود اليه الاصل في احداث تسمية التفاعلات الرمزية، ان هذا التوجه يتوقف على ثلاثة مبادئ، أ) ان الافراد، في سلوكهم تجاه الاشياء، يرتبطون بالمعنى الذي تحمله هذه الاشياء اليهم،ب) ان معنى هذه الاشياء يتأتى او ينبثق عن التفاعل الاجتماعي مع الاخرين، وج) ان هذه المعاني يتم تناولها وكذا تعديلها في سياق صيرورة تأويلية يوظفها الفرد في التعامل مع الأشياء التي يلاقيها. ان تعبير التفاعلات الرمزية يتعلق بالطابع الخاص و المتميز للتفاعل كما يتخذ مسارة بين البشر. و يتمثل هذا التمايز في كون الافراد يؤولون او يعرفون افعال بعضهم البعض بدل الاستجابة ( التلقائية) فقط لافعالهم. وهذه التجاوبات لاتتوجه الى افعال بعضهم البعض، ولكن وبدلا من ذلك فهي تقوم على المعني الذي يضيفه هؤلاء على الفعل.[40]

ويرى بلومر في اصل المعني انه وفي السابق فقد كان الارتكان الى منظورين كلاسيكيين، احدهما يعتبر المعنى اصلي (intrinsic) في الشيء والذي يحمله ويتضمنه، والأخر ينظر الى المعنى على انه اعتبار نفسي يضفي على الشيء من طرف الفرد، وهذا الاعتبار يمثل التعبير عن العناصر التي تشكل بسيشية الفرد وذهنه وتنظيمه النفسي. ان التفاعلات الرمزية بالمقابل تظهر ان مصدر المعني لايمكن في التكوين الجوهري للشيء في حد ذاته ولا في العناصر النفسية التي يحملها الفرد ولكن وبصفة اساسية فان هذا المعني ينمو من خلال تعامل افراد المجتمع مع الفرد تجاه الشيء. فافعال هؤلاء تلعب دور تعريف الشيء للفرد اي اعطاءه المعنى. ومن ثم، فان التفاعلات الرمزية تنظر الى المعنى كمنتوج اجتماعي يتأسس من خلال نشاط الافراد وهم يتفاعلون، وهذا ما يجعل المعني ظاهرة اجتماعية.[41]

يستتبع ذلك ان جماعة الافراد المتفاعلين تولد صيرورات اجتماعية تنتج المعني، ومن هذا المعني تتأتى الحقائق التي تمثّل"العالم الحقيقي" الذي يقضى فيه الأفراد حياتهم. و أخيرا، فإن هذا العالم الحقيقي المؤسس اجتماعيا يقوم بدور المرجع في فعل الفرد اي في العالم الذي يعيشه وياتي الى التعود عليه باستمرار. ويستشهد بلومر بطوماس في قوله بانه ليس مهما ماذا كان هذا التأويل صحيحا ام لا، فاذا عرف الافراد الوضعيات كحقيقة فانها تصبح حقيقة في عواقبها.[42] ويطرح بلومر في منهجه ان التفاعلات الرمزية تدرس الفعل الاجتماعي بالتوجه الى الكيفية التي يتأسس بها الفعل، وهذا التشكل يختلف عن سابقات الفعل (اي الماضي ) أو عواقبه(أي المستقبل). ويمكن الإقرار بالطبع ان الفعل الاجتماعي يملك سوابق سببية وعواقب لاحقة تتدخل في الفعل الاجتماعي وتؤثر فيه، ولكن هذه الاسباب والعواقب لاتمثل ( او تشكل) الفعل. ان مقاربة الفعل الاجتماعي، في تحليل بلومر، تمكن في دراسة الصيرورة التي يعدل بها عدة افراد (وذوات) وبصفة متبادلة سبلا متعددة من الفعل على اساس التأويل المستمر للعالم.

ويميز بلومر في تحليله بين مايسميه بالمفاهيم الثابتة (definitive concepts) والمفاهيم التحسسية (sensitizing concepts)، فالأولى توفر وصفات لما سنراه بينما تقوم الثانية فقط باقتراح توجهات للبحث

(39) أهمّ أعماله:
*Movies, Deliquency and Crime* (1939) ; *Symbolic Interactionism : Perspective and Method* (1969)
40) Herbert Blumer, « Society as Symbolic Interaction », in Alan, p. 91
41) Howard Schwartz and Jerry Jacobs, *Qualitative Sociology : A Method to the Madness*, The Free Press, New York, 1979, p. 24
42) Ibid., p. 24

عنها.وفي تحليل بلومر، فان المفاهيم تحسسية على اعتبار أن حقيقة الفعل الاجتماعي حقيقة متغيرة متغايرة لايمكن ايقاف مسارها بشيء ثابت كما وان تعريف المفاهيم العلمية يتعين ان تقوم على التعاريف التي تنبثق عن تفاعل الافراد مع بعضهم البعض.[43] وفي تصور بلومر، فانه لاتوجد هناك لا استمرارية مطلقة بين العلم وخطاب الحياة اليومية، والمفاهيم التحسسية في هذه الحالة وكما هو شأن الفعل الاجتماعي تقاوم التحجير (compartmentalization) والتنميط والاستقرار.

ومنهجيا، فان بلومر يرى ان دراسة الفعل الاجتماعي تتعين ان تتم من موقع الفرد الفاعل اذ وحيث ان فعل الفاعل تم تلفيقه من طرف الفاعل بناء على مايدركه ويؤوله ويحكم عليه، فان الامر في هذه الحالة يتطلب رؤية الوضعيات الفعلية كما يراها الفاعل، وادراك الاشياء كما يدركها الفاعل، واستنباط معناها من حيث المعنى الذي تحمله للفاعل واتباع سبيل الفاعل كما ينظم هذا الاخير هذه الوضعيات، وبايجاز، اتخاذ دور الفاعل كما يرى العالم من موقعه.[44] واذا، فان فلسفة العلم عند بلومر هي فلسفة العالم الاجتماعي كعالم من المعاني المؤولة.[45]

## افتراضات التفاعلات الرمزية

وقد اورد دنكن افتراضات اساسية تشكل البنية النظرية التي تميز التفاعلات الرمزية. هذه الافتراضات لاتستنفذ ما تطرحه هذه المدرسة من مبادئ واهداف ولكنها توفر الاطار الذي يسمح بالتنظير والنقد. وتتمثل هذه في:[46]

### الافتراض 1

*ا ان المجتمع ينشأ ويستمر وجوده في توصيل الرموز الدالة ا*

مايقصد بالرمز الدال ليس فقط الرمز الذي يعطي الاشارة او " يحفز" الاخر لكن ايضا الذي يوقض في الذات نفس المعنى الذي يحدثه لدى الاخر. وكما يقول ميد فان الرمز الدال، مثل كل الرموز المنطوقة تعبير معيش في شكل خطاب الى الذات في الوقت الذي هو خطاب موجه الى الاخر. فالاتصال في هذه العلاقة الثنائية، يؤسس العلاقات الاجتماعية لان اللغة تعطي لنا القدرة على تأويل ما سيقوم به الاخر ومن ثم اتخاذ موقف هذا الاخر بناء على هذا الموشر. يترتب عن ذلك انه لايمكن بناء اي نظام اجتماعي

(42) Ibid, p. 24
(43) Ibid, p. 25
(44) Nicholas, p. 240
(45) Charles C. Lemert, *Sociology and the Twilight of Man*, Feffer & Simons, London, 1979, p. 114
(46) Hugh D. Duncan, *Symbols in Society*, Oxford University Press, New York, 1968, pp. 43-62

نظري بدون بعض النوع من الاتصال. وهذه النظرة ليست حديثة تماما. فقد اعتبر بارسونز ان [47] انظمة الفعل الانساني مستحيلة بدون انظمة رمزية (قارة نسبيا)، وذلك على الرغم من منهجه الوصفي الالي. ويشير كولي ان الاساس النفسي لكل تجمع بشري هو الاتصال. ويبين دوي [48] ان المجتمع يستمر في الوجود ليس فقط بالاتصال ولكن في الاتصال، وهناك في نظره اكثر من ارتباط لفظي بين مشترك (common) وجماعة (community) واتصال (communication). ويظهر مالوبنسكي ان لمعرفة اسم اواتقان الاستعمال الصحيح للفعل او التوظيف الملائم للنقطة سلطة سحرية تتعالى على مجرد المنفعة الملائمة للكلمات في الاتصال بين الانسان. وينظر ميد الى الاتصال على انه مشاركة في الاخر. وهذا يتطلب ظهور الاخر في الذات، اي تعريف الاخر في الذات، والوصول الى الوعي الذاتي من خلال الاخر. ويرى دلثاي ان الدراسات الانسانية تصبح موضوع بحث لنا عبر الموقف الذي يوجد في العلاقة بين الحياة والتعبير والفهم. ونجد عند فرويد، وفي المعالجة النفسية، فان لاشيء يحدث سوى تبادل الكلمات بين المريض والطبيب. فالمريض يتحدث، يحكي تجاربه الماضية واحاسيسه الحاضرة، يحتج ويعبر عن رغباته وعواطفه. والطبيب يستمع، يحاول توجيه صيرورة تفكير المريض، يذكره، يجبر انتباهه الى بعض الانجاهات، يعطيه تفاسير. ويلاحظ ردود فعل الانكار الذي يثيره، الخ. واعتبر فرويد ان الكلمة والسحر كانتا شيئا واحدا وانه وحتى الان فان الكلمات مازالت تحتفظ ببعض القوة السحرية. ان الكلمات تحرك العواطف وهي عالميا الوسائل التي نؤثر بها على الاخرين. واشار فرويد الى ان الكلمات المنطوقة يمكن ان تحدث سعادة كبيرة او يأسا كاملا بسبب ذلك. فالوعي عند فرويد يتجسد من خلال الاتصال. ان الاشياء تصل الوعي من حيث انها تصبح مرتبطة بتقديم الكلمات المماثلة لها. وهذه التقديمات " رواسب الذاكرة"، ادراكات، الخ.. وككل رواسب الذاكرة يمكن ان تصبح وعيا مرة اخرى، كما وان كل شيء ياتي من النفسي ويحاول ان يكون واعيا لابد وان يحول نفسه الى ادراك خارجي. واذا، فان كان الاتصال بهذه الاهمية في بروز المجتمع، فان نظرية رمزية بقدر هذه الاهمية ضرورية في دراسة الفعل الاجتماعي، اي كيف تؤثر الرموز في العلاقات الاجتماعية او كيف تتدخل القوانين الرمزية في الاتصال الاجتماعي.

## الافتراض2

*/ ان الانسان ينشئ الرموز الدالة التي يستعملها في الاتصال /*

ان الانسان قادر ليس فقط على الاتصال ولكن على الاتصال حول الاتصال. ان اي معنى ( و الذي تحمله الرموز) مهما كان قارا بفعل الطقوس او السحر او التقاليد لابد وفي وضعية الانسان أن يمر على اختبار و ثاقة الصلة (relevance)، أي أنه يجب أن يساعد الإنسان في التعامل مع المشاكل التي تبرز عندما يتفاعل مع بعضه البعض. فالفعل دائما يختبر في الطور الرمزي (symbolic phase) وذلك باستكشاف، في تصوراتنا للماضي والمستقبل، الطريقة التي من خلالها ترتبط الاهداف والوسائل ببعضها البعض في الحاضر. فنحن نتصرف كما وان الطريق الذي نسلكه سيصل الى الهدف المتخيل والهدف المتخيل يحدد الوسائل التي نختارها للوصول الى الهدف. ان الحاضر الذي يتفاعل فيه الانسان مع الانسان الاخر، ومن ثم انشاء الرموز وثيقة الصلة بذلك، هو اساس التفاعل الاجتماعي.

(47) مؤسّس المدرسة الوظيفية في أمريكا.
(48) أهمّ أعماله: *Human Nature and Conduct* (1922)

## الافتراض 3

*/ إن العواطف و كذا الفكر و الإدارة يتم تعلمها في الإتصال /*

ان الاحساس شحنة جسدية وليس بعاطفة كمثل الاحساس بالجوع، اما العاطفة فتتوقف على التعبير (اي استخدام اللغة). فلا توجد هناك عاطفة ( او عواطف) غير معبر عنها ولو ان هذا التعبير يتوقف بدوره على الاحساس الذي يمثل القاعدة البيولوجية للعاطفة. فالعواطف تظهر اذا في الاتصال. ان كيفية التعبير عن العواطف والشكل الذي يعبر عنها ومقدار الرموز المتوفرة تحدد مدى التأثير. اننا نتعلم الاعتزاز والحسد والشجاعة والاشمئزاز و الندامة و غيرها من الأحاسيس المجتمعية في الإتصال مع الأخرين الذين تتقننا ردود افعالهم ماتعنيه افعالنا لهم ومن ثم لانفسنا حين نلعب دورنا في الجماعة الكلية.

## الافتراض 4

*/ ان الرموز تؤثر على الدوافع الاجتماعية عندما تحدد الاشكال التي يعبر بها محتوى العلاقات /*

ان العلاقات الاجتماعية تولد في دعوة الاخرين للاستجابة بطريقة تلبي الاحتياجات الاجتماعية، وكذا الفزيولوجية والشخصية واللغوية والميتافيزقية. فالطفل يبكي للوصول الى مبتغاه من والديه،والمسؤول يستعرض (يقوم باستعراض) امام المستخدمين لاقناعهم وكذا نفسه بجلالته وعظمته. ان كيفية التعبير عن هذه الاحتياجات (وشكل التعبير) تحدد مستوى الرضا. وبدون شكل، لايوجد هناك محتوى، وبدون محتوى فان الشكل يبقى بدون معنى في التجربة الاجتماعية.

وقد اورد سيمل George Simmel اننا نلعب (أي نعيش) المجتمع من خلال الاشكال الاجتماعية المسماة بالطبائع والتي يمكن تفسير معناها برضانا في اللعب الشكلي نفسه. فالعادة تحدد المركز الاجتماعي وهي تمثل ايضا اشكالا مجتمعية تربطنا ببعضنا

البعض في اوقات التآلف وذلك، وفقط، بسلطتها كأشكال. ان الصور والرؤي وكل تخيلات المستقبل اشكال رمزية، اذ عندما يصبح المستقبل حاضرا، اي حقيقي، فان مستقبليات جديدة يتم ايجادها لادارة بحثنا عن مشاكل الحاضر، فكل فعل يتضمن ماض، حاضر، ومستقبل، ولكن البنية الحالية والوظيفية للفعل الرمزي محددة بحاجتنا للفعل في الحاضر. اننا نعود الى الماضي والمستقبل لانشاء الاشكال التي من خلالها نتحرك ونفعل. ان القبض على الماضي هو في الحقيقة اعادة تشكيل تماما كما ان صورة المستقبل ليست حقيقية مثل الفعل الحاضر حيث ان علاقاتنا في هذه الاخيرة حقيقية ورمزية. واذا فان الفعل الاجتماعي محدد باشكال الاتصال وان استحضار هذه الاشكال هو تأسيس للطرق التي نرتبط بها في المجتمع.

## الافتراض 5

*/ من وجهة نظر اجتماعية، فان الدوافع لابد ان تفهم كحاجة الانسان الى النظام في علاقاته الاجتماعية /*

ان تواجد بنية في العلاقات الاجتماعية ضرورية في الفعل الاجتماعي، هذه البنية تبدأ من العلاقة الاولية اللارسمية في جماعة مصغرة الى جسم نظامي رسمي مقدس. فالانسان في الواقع محدد في اطار بنية اي علاقة اجتماعية، والحاجة الى شكل من اشكال العلاقات مع الاخرين هو اسس المجتمع الانساني. وكما انه ليس هناك اي فعل غير مدفوع بمصلحة او غريزة او حاجة، فانه ليس هناك فعل اجتماعي بدون بعض الشكل او البنية التي تنشئ النظام او تدعمه او تهدمه.

ان الاشكال الاجتماعية تحدد مدى تلبية رغباتنا، فالاحتياجات تلبي دائما في العلاقات. والعلاقات بالمقابل ممكنة فقط لاننا نفهم مايعينه الافراد بهذه الاشكال التي يلعبون فيها الادوار. ان لعب الادوار هو تمثيل جزئي في بعض النوع من الدراما الاجتماعية التي، من وجهة نظر اجتماعية بحتة، هي دراما النظام. فالدراما الاجتماعية هي دراما اضفاء الشرعية وهي محاولة اعطاء الشرعية لمصدر القرار باقناع المشاركين بان هذا النظام ضروري في بقاء الجماعة. وفي العلاقات الشخصية، فان الطبائع والتقاليد والاعراف والاساليب تستعمل لاضفاء الشرعية على حقنا في المنزلة الاجتماعية التي نحتلها. انه من خلال كيف نصاحب ، كيف نأكل، كيف نحكم، كيف نعبد، كيف نموت، و بإختصار الأشكال التي نتحرك فيها، يتحدد احساسنا بالتملك فيما يخص افعالنا وافعال الاخرين. ومن خلال هذه الاشكال نؤول معنى افعال الاخرين كما يقوم هؤلاء الاخرون بتأويل معنى افعالنا. وهذه الاشكال هي في ذاتها تمثل العلاقات وهي تتواجد في نظم مثل الاقتصاد والسياسة. وتتداخل هذه الاشكال ومحتوياتها بحيث لايمكن احداث عملية التمييز. وفي الواقع، فانه وفقط في الفن نستطيع تجربة الاشكال الرمزية كشكل في حد ذاته.

## الافتراض 6

*/ ان الرموز هي بيانات المعاني التي يمكن ملاحظتها مباشرة في العلاقات الاجتماعية /*

ان كل مانعرفه عن المعنى الذي يبرز في العلاقات الاجتماعية هو مايقوله الفرد عن هذا المعنى، اي مايعبر عنه. وماقد ينسب من معاني الى قوى اوصيرورات او طاقات فهذه تبقى تأويلات وليست ملاحظات الى حين ان تتحول الى المعبر. يضاف الى ذلك ان تأويل " ماوراء" او " ابعد من" الرموز تظل تأويلات للرموز في حد ذاتها. ورغم اننا نعرف ان المحتوى الظاهري للحلم مثلا ليس معناه الحقيقي الا اننا لابد ان نظهر كيف ان المعاني الحقيقية يمكن الوصول اليها عبر الرموز التي يمكن ان تلاحظ. وعندما نقول ان هناك بعض الحقيقة في العلاقات الاجتماعية التي تقع فيما بعد الرموز (extra-symbolic) فنحن مازلنا محكومين بالرموز في وصفنا لعمليات الظاهرة المابعدية الرمزية التي لاحظناها. و إذا فلا مفر من التعبير عن ما هو خارج الرموز بالرموز. وهذا التعبير يرتبط بالاشكال اللغوية كالقوانين والقواعد والعادات والاستعمالات والتي ستحدد مانستطيع وصفه عما لاحظناه اذ انه من خلال التسمية يمكننا كبشر ان نرتبط بالاشياء والاحداث.

## الافتراض 7

*ا يتم التعبير عن النظام الاجتماعي من خلال نظام التسلسل الذي يصنف الافراد الى مراتب، طبقات، ومراكز اجتماعية وفي نفس الوقت يحل هذا التمايز من خلال الدعوة الى مبادئ النظام التي تتعالى عن تلك التي يتأسس عليها هذا التمايز ا*

ان النظام الاجتماعي يتمظهر دائما في بعض النظام السلمي، وهذا المبدأ يميز بين الافراد في المراتب بناء على السن، الجنس، الارتباط العائلي، الملكية، السلطة، الخ.

هذا التمايز يتم تجاوزه بالدعوة الى المبادئ العليا العالمية الاكبر من المبادئ المحلية.

إن السلطة (أو السلطات) تسعى إلى إلباس الرموز المحلية و رموز مؤسساتها و طبقاتها و مراتبها برموز عالمية فوق الاهتمام المحلي. ويتم ذلك باقناعنا بان هذه الرموز ستضمن استقرار النظام الاجتماعي لانه باستعمالها سننتقل من المعنى الادنى الى المعنى الاعلى. ففي اللغة، ننتقل من الخاص الى العام، وفي الديانة من الانسان الى الله، وفي العلم من الوصف الى التحليل، وفي الحقوق من الفوضى الى القانون، وفي الطبيعة من الحيوان الى الانسان، الخ. اننا نبرر كل فعل كخطوة نحو مستوي اعلى، وكل مستوى يضفي عليه الاعتقاد ببعض النوع من النظام العالمي النهائي الذي يبرر نظام التسلسل لان هناك نهاية حتمية (حالة متعالية) تجعل كل خطوة نحو المطلق الذي تنتهي فيه كل الخطوات كما بدأت.

## الافتراض8

*ا ان نظام التسلسل يعبر عنه عن طريق ترميز الاعلى والاسفل والمساوي وكذا الانتقال من الواحد الى الاخر ا*

ان المنزلات الاجتماعية (علوية، سفلية، او مساوية) تتضمن ادوارا يتم تعلمها وممارستها في اطار النظام الرمزي ( اي اللغوي) في المجتمع.ويدخل في سياق ذلك وبصفة اساسية صيرورة الانتقال او العبور من مستوى الى اخر والذي يتضمن ازالة الطابع القداسي على القديم، ايجاد الجسور بين القديم والجديد، والدخول او انشاء دور جديد. وهذا الزمن او الازمنة من الانتقال تشكل عنصرا مؤسسا في النظام السلمي ولايمكن اخضاعها نظريا للازمنة المقدسة الغيرمتغيرة للمراتب المثبتة في النظام الاجتماعي. فالنظام الاجتماعي هو نظام التعبير او بعده، والبنية الاجتماعية تتواجد في الانتقال من القديم الى الجديد كما تتواجد في المبادئ القارة للنظام.

## الافتراض 9

*ا ان نظام التسلسل يقوم على الاقناع الذي يتخذ شكل المجاملة في العلاقات الاجتماعية ا*

ويتم مثل هذا الاقناع بتمجيد رموز الجلالة والسلطان على اعتبار ان هذه الرموز تمثل النظام الاجتماعي.

ويتم هكذا اضفاء الدراما على سلطة الحاكم كممثل لبعض المبادئ المتعالية التي تنشئ وتحافظ على كرامة المنصب الذي يعكس النظام لا الفرد في حد ذاته. فالحاكم يحكم دراميا من اجل مايسمى بتحقيق اهداف المجتمع او احياء ماضيه او الدفع به الى المستقبل، الخ... وفي هذه الحالة، فان الضرورة تستدعي الاستعراض الدرامي لاقناع الاخرين والذات بهذه المبادئ حتى وان كانت ابعد ماتكون عن المنطق. ويقابل ذلك وضع ممائل فيما يتعلق بالمحكوم الذي يسعى الى اظهار ولائه بالارتباط بالمبادئ التي تحفظ النظام وبرغبة الحاكم. وهذا الولاء لابد وان ينظر اليه (من طرف الحاكم والمحكوم) كحق ذلك ان الحاكم يحكم باسم مبادئ مقدسة للنظام.ويتم التعبير عن هذا بمختلف اشكال الاجلال والتقدير والاستكانة وحتى الاذلال. واذا وكما ان هناك دراما السلطة هناك دراما الخضوع ان الاتباعية لاتعني فقط الاذعان، فهي دراما المجاملة، اي التعبير عن هذا الخنوع تجاه الحاكم في طقوس احتفالية.

وفي الواقع، فان المنزلات الاجتماعية تعطى اكثر مما تؤخذ ذلك انه يمكن الاستحواذ على سلطة او اجبار الفرد على فعل ما، ولكن لاتستطيع التمكن من المنزلة الا اذ اعترف الاخر بحقنا في المنزلة او في احداث مثل هذا السلوك، اذ لابد من ربح مصادقة الاتباع وهذه المصادقة هي التي تسمح باستدخال المعنى الاجتماعي للمنزلة والمكانة والمنصب. ان المجاملة التي هي خطاب نظام التسلسل تهتزفي نهاية المطاف عندما يتم المساس بمجد مبادئ النظام الاجتماعي.

## الافتراض 10

*ا ان التعبيرعن نظام التسلسل يمكن ادراكه بصفة جلية عبر اشكال الدراما التي هي كوميدية وتراجيدية في نفس الوقت ا*

ان المجتمع في النظام الدرامي قد يعاني كل من الاثم والخوف وعندما يحدث ذلك يتحول المجتمع الى التراجيديا التي تقوم على مبدأ التضحية (victimage) فيكون الضحية اي مصدر نسقط عليه سيئاتنا وهو (اي الضحية) يمثل في نظر السلطة العصيان.اننا وفي الدراما الاجتماعية والسياسية والفنية فاننا نقوم بدراما التطهير (purgation)، وهي الدراما التي تعطي الخوف تأمثلات تنتقل الى الوعي بحيث يمكن التعبير عن مواقف واتخاذ افعال ضرورية لازالة الخوف والاثم. فالتراجيديا تزدهر في الالغاز وهي توجه دعوتها الى قوى خارقة باثارة قوى سوداء سحرية نسعى الى الاتصال بها على الرغم اننا قد نعتقد بان هذه القوى لايمكن في الواقع الاتصال بها.

والكوميديا بدورها تمثل الشك المراقب، وهي تسمح بطريقة ملائمة التعبير عن الشك في عظمة وحكمة من هم اعلى في السلم، في ولاء وتفاني من هم اسفل في السلم، وفي ثقة المساويين من الاصدقاء. ان الكوميديا، مثل التراجيديا، تعاقب اثم الكبرياء، وهي تعلمنا انه وبقدر ما يؤدي المنطق وظيفته بصفة مفتوحة في المجتمع فان الانسان كانسان يستطيع تصحيح الخطيئة. والكوميديا تعتبر خطيئة كل ما يفصل الانسان عن الانسان وهي ( اي الكوميديا) تأتي الى وعينا بعدم التلاؤم بين الاهداف والوسائل المستعملة في المجتمع، وهي بالتالي تضفي الدراما على النظام الاجتماعي.

## الافتراض 11

*ا ان النظام الاجتماعي ينشأ ويستمر بقاؤه في الدراما الاجتماعية بفعل التمثيلات المشتركة المكثفة*

*والمتكررة للادوار التراجيدية والكوميدية التي يعتقد ان اداءها ضروري لبقاء الجماعة. ا*

ان الجماعة تبقي متواجدة بفعل اداء الادوار الضرورية للنظام وذلك بصفة مكثفة ومتكررة. وهذه الادوار تنشئ وتعيد انشاء معاني واهداف هذه الادوار، وباداتها بحضور الاخرين فاننا ننمي الاحساس بالروح الجماعية. ان ادوار الجماعة لابد ان تعرض نفسها امام الجمهور الذي ويصادقته يعطي الشرعية لسلطة هذه الجماعة. والجمهور، بالمقابل، لابد ان يلحظ مشاكل الجماعة مؤداة في بعض التقديم الدرامي اذ من خلال الاشكال التي تنشأ في هذا الفعل تصبح مشاكل المجتمع مستوعبة كأفعال. فالكوميديا تسمح لنا بمواجهة مشاكل الحياة المجتمعية والتي لايمكن مواجهتها بطريقة اخرى. فنحن نتعلم الفعل عندما نلعب ادوارا في عدة انواع من الدراما. واذا، فان استعراض الادوار في بنيات درامية، هو تقديم لنفسنا للجمهور العام والخاص الذي بفضل مصادقته نكتسب الاحساس بالهوية والانتماء.

## الافتراض 12

*ا ان النظام الاجتماعي يمثل دائما حل عملية القبول، او الشك، اورفض المبادئ التي يعتقد انها تضمن النظام ا*

ان النظام ياتي في عملية حل اشكالية الصراع على السلطة. ويلاحظ ان هناك ثلاثة انماط من التكيف في التعامل مع الذين يسعون الى اضفاء الشرعية على سلطتهم تجاه الاخرين باسم بعض مبادئ النظام الاجتماعي: يمكن تقبل اوامر هؤلاء كواجب،

او الشك في ذلك املا انه وفي الشك والبحث يمكن تجاوز عدم التلاؤم، أورفض ذلك.

ان الشك لايمثل فقط غياب الاعتقاد ولكنه منهجية بحث يؤسسها المجتمع كما يؤسس القبول او رفض مبادئ النظام في الديانة والسياسة مثلا. فنظام التعليم يعلمنا التساؤل عن كيفية معرفة مانعرف، ومن ثم تأسيس الذكاء الناقد، والكوميديا توضح لنا عدم التلاؤم بين المثل والتطبيقات. ان الشك في الواقع يولد النقد، والنقد (في مختلف اشكاله الاجتماعية) يتواجد عندما يحدث الاعتراف بانعدام التوافق بين الوسائل والاهداف، وايضا عندما يكون هناك امل في تجاوز ذلك. واذا فان النظام يكون نظاما عندما يقوم بتسوية الاشكالات المؤسسة في المجتمع والمتعلقة بالقبول او الشك او الرفض.

## المنهج الدرامي و إدارة الانطباعات

وقد ظهرت في اطار التفاعلات الرمزية بعض التفرعات النظرية والمنهجية[49] اهمها مايعرف بالمنهج الدرامي الذي اسسه كوفمان.[50]

يرى كوفمان ان الانسان كانسان يرى الحقيقة وفقط بوساطة الرموز، فالعالم الاجتماعي ليس نظاما ذاتيا

(49) من مناهج التفاعلات الرمزية: دراسة الوثائق الشخصية، تحليل الحياة الشخصية، المشاركة الملاحظة إلخ.participant observation ، دراسة حالة Case study

(50) أهمّ أعماله:
*The Presentation of Self in Everyday Life* (1959) ; *Asylums* (1961) ; *Encounters* (1961) ; *Stigma (1963)* ; *Interaction Ritual* (1967) ; *Relations in Public : Microstudies of the Public Order* (1971) ; *Frame Analysis : An Essay on the Organization of the Experience* (1974)

والمعاني غير موروثة في السلوك، ولكن دلالة سلوك ماتكمن في المعاني المنسوبة اليه. ان الافراد المشاركين في بناء تاويلاتهم للوضعيات الاجتماعية الخاصة يحاولون تقديم افضل نظرة ممكنة عن ذواتهم او النظرة التي يعتقدون انها اكثر ملاءمة في تحقيق اهدافهم مهما كانت هذه الاخيرة. فالافراد اذا يسعون الى ادارة صور انفسهم في عملية تقديمها للاخرين. ويطرح كوفمان في هذا التحليل النموذج المسرحي ليس كاستعارة مفيدة فحسب ولكن كمنظور منهجي ذو اهمية مركزية. ويستعمل كوفمان في منظوره هذا بعض الادوات من مـــثل الاداء (performance) الممثل، الجمهور، علي الخشبة (onstage) خلف الخشبة (backstage)، القناع، المخطوط (script)، الاثاث، الديكور، والاحالات المسرحية الاخرى، وذلك في دراسة حقيقة الفعل الاجتماعي. فالسلوك الاجتماعي في نظره مماثل للاداء الدرامي حيث يحاول الفرد الممثل ان يبلغ صورة معينة عن نفسه للاخرين. وتتجسد نفس الظاهرة في محيط أوسع كالمؤسسة. فاي مؤسسة إجتماعية يمكن ان تدرس من زاوية ادارة الانطباعات، ففي المؤسسة تقسيم للادوار،فهناك ماخلف العرض حيث يحضر الاداء بصفة روتينية، وهناك ماعلى الخشبة حيث يتم تقديم العرض. ونجد ان الوصول الى هذه المناطق مراقب لمنع الجمهور من رؤية ماوراء العرض ومنع الخوارج من رؤية العرض الغير موجه اليهم. وفي نظر كوفمان، فان المذهب الدرامي يمثل بعدا خامسا في الحياة الاجتماعية اضافة الى التقني والسياسي والبنياتي والثقافي. وفي الواقع، وفي طرحه دائما، فان هناك تداخل بين البعد الدرامي والبعد السياسي من حيث القدرة على توجيه سلوك الاخر والاخرين. يقول كوفمان " اذا سعي الفرد الى توجيه سلوك الاخرين بوسائل المثال، التنوير، الاقناع، التبادل، الحيلة، السلطة، التهديد، العقاب، الاجبار، الخ. فانه من الضروري وبغض النظر عن موقعه السلطوي التبليغ بفعالية مايريده ان يتحقق، مايستعد القيام به لتحقيق ذلك، ومايقوم به اذا لم يتحقق ذلك. فالسلطة من اي نوع لابد ان تلبس بوسائل ذات مفعول لعرضها، "وستكون لها تأثيرات مختلفة بناء على الكيفية التي تقدم بها دراميا. " [51] وتكون مهمة الباحث في هذه الحالة ازالة القناع عن الزيف المخفي في الاقنعة الاجتماعية وكذا وصف تقنيات ادارة الانطباع المستعملة في المؤسسة وتحديد العلاقات المتبادلة في اداء مختلف الادوار على مستوى المجتمع الاوسع.

## من دراسة النص الى دراسة الواقع الرمزي

يتضح في تناول اسس افتراضات التفاعلات الرمزية ان هذه المدرسة تطرح تصورا عن المعني ولاتصال والتفاعل الاجتماعي يغاير ما كان يسود في الدراسات الاجتماعية التقليدية: وظيفية أو مادية، الخ. ونجد ان الدراسات الاجتماعية في المنطقة العربية لم تواكب التطور و النضج الحاصل في ميدان التنظيم الإجتماعي و من بين ذلك ماتطرحه التفاعلات الرمزية من مبادئ ومناهج، وظلت هذه ( اي الدراسات العربية) تتشبث وتوظف المفاهيم النهائية، كما سماها بلومر، التي تعود الى زمن سيادة النزعة المادية التي ترتبط بمنظري الصراع او الوظيفة التي تقترن باعمال بارسونز ومن قبله دوركايم وكونت.

وقد عملت الدراسات الاجتماعية في المنطقة العربية على توظيف او قل اقحام مفاهيم التوجه الكلاسيكي من مثل التضامن الاجتماعي، التقسيم الاجتماعي للعمل، تطورالمعرفة من الميتافيزقية الى العلم، الطبقة الاجتماعية، الوعي الزائف، الاعتراب ( وكذا الدعاية، الرأي العام، والثقافة الجماهيرية في ميدان الاعلام) في تفسير بنيات المجتمع العربي وحركيته. وحاولت هذه الاخيرة بالتالي تشكيل الواقع العربي وفق هذه المفاهيم رغم ان هذا الواقع في تاريخه وقيمه وصيروراته وتموقعه الحضاري يبتعد كثيرا عن الزمن

51) Erving Goffman, *The Presentation of Self in Everyday Life*, Doubledays and Company, New York, 1959, p. 240

الاجتماعي والثقافي و السياسي الذي نشأت فيه مثل هذه المفاهيم، و أدى ذلك الى تشويه وتحريف هذا الواقع بقدر ماكانت تحمله هذه المفاهيم من ابعاد وخلفيات. وقد استثنت هذه الدراسات العربية المعاني و الحقائق المتنوعة التي كان ينشئها المجتمع في تعامله مع احداثه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفنية، اي في تفاعله الاجتماعي مع ذاته ومع الاخر. والواقع ان هذه الدراسات انتقت وكيفت مجموعة من مايمكن تسميته مجازا بالحقائق الجزئية وفق ماترتضيه هذه المفاهيم دون مساءلة هذه الاخيرة او الشك فيها او اعادة تعريفها، الخ. ومارست بالتالي بعض النوع من الامبراياليه على الواقع المتغير المتغاير وحجبت امكانية طرح حقائق اخرى غير او بالاضافة الى التي تتبناها وكأنها في حد ذاتها الحقيقة.

ماتطرحه التفاعلات الرمزية من تصورات وتوجهات في البحث الاجتماعي يدعو الى دراسة الفعل الاجتماعي ليس من حيث مناظير ومفاهيم جاهزة مسبقا ولكن من حيث المعاني التي يؤسسها افراد المجتمع في حياتهم اليومية والتي تشكل اساس فعلهم الاجتماعي. هذه المؤسسة من البحث تسمح بالتقرب اكثر من واقع المجتمع كما هو معيش في مختلف تجلياته كما وان ذلك يضفي الدينامية والحركية على عملية البحث عن الحقيقة، ذلك ان المفاهيم لا يمكن الا ان تكون تحسسية اي مؤقتة الى حين ان تظهر معاني اخرى تؤدي الى تولد مفاهيم اخرى وهكذا.

ان المنظور والنهج الذي تعكسه التفاعلات الرمزية تكتسي اهمية خاصة في دراسة واقع المجتمع في المنطقة العربية وذلك بحكم طبيعة الثقافة الشفوية التي كثيرا ماتندثر وما يبقى عالقا في رواسب الذاكرة لايمكن ان يشكل اساس فهم الظاهرة الاجتماعية في السلوك الاجتماعي. ويسمح البحث الاجتماعي التفاعلي الرمزي من تدوين المعاني الذاتية التي يحملها الافراد عن واقعهم والتي تشكل اساس حقيقتهم ووعيهم بانفسهم وبالعالم الخارجي خاصة وان الواقع في المنطقة العربية غني بالحقائق الإجتماعية الرمزية سواد كانت اسطورية او دينية او اجتماعية او سياسية، الخ.

وتضاف اهمية اخرى الى ذلك في ان الدراسات العربية والاسلامية عامة عادة ما ترتكن الى دراسة النص لا الواقع. واذا كان النص المطبوع يكون المرجع التراثي والثقافي والحضاري كما نجد ذلك في مراجع عصر التدوين في المرحلة العباسية (او عصر النهضة والطباعة في اوروبا)، فان ذلك لايكون كافيا بحكم ان النص يعيش بحياة المجتمع، اي ان المجتمع يعطيه تأويله الحاضر وفق الزمان و المكان. و إذا استثنينا عنصر التفاعل الإجتماعي في فهم النص، فاننا نكون قد قتلنا عامل الزمن في النص وذلك جزء من ازمتنا الحضارية المعاصرة.

وتبرز مكانة التفاعلات الرمزية من جهة اخرى في المكانة المعطاة الى اللغة والاتصال في عملية تأسيس الحقيقة الاجتماعية التي تشكل اساس الاستقرار والحركة الاجتماعية، ويتم التركيز في ذلك ليس على البنية اللغوية كما يفعل الليسانيون ولكن على المعنى الذي تحمله الالفاظ في حركيتها اي في التفاعل الاجتماعي. ان الاتصال يعني التحكم في النظام الاجتماعي وتفكك الاتصال، كما يحدث في اطار المجتمع العربي سواء على مستوى فئاته الاجتماعية او االثقافية او السياسية او اللغوية، يؤدي الى انهيار الانظمة الاجتماعية والثقافية والسياسية والحضارية. كما وان الإتصال الدرامي سواء تعلق الامر بما هو داخل المجتمع او بالصورة التي يتعين ان يعكسها على الخارج مازال ثانويا اذ ان الوعي بدلالة مثل هذا الاتصال مازال في بدايته وعادة يرتبط بما هو مسرحي في ذاته لابما هو حقيقي كما نجده في المجتمع عبر مؤسساته السياسية والاعلامية.